

الواقعية في الأدب العربي:

إذا شئنا أن نجد هذا المذهب في الأدب العربي، فلا نظفر بواقعية ذات خصائص وأشكال فنية، على غرار واقعية الآداب الغربية، بل لا نظفر أيضاً بأي مذهب ادبي آخر له هذه الخصائص وله فلسفته التي يقوم عليها وإنما نجد اتجاهها وأساليب تلتقي في بعض خصائصها بالمذاهب الغربية كالرومانتيكية والواقعية والرمزية، ولكنها اتجاهات لا تفقد خصوصيتها العربية كما أنها لا تعدم الكثير مما انطبعت عليه هذه المذاهب الغربية، التي تأثر أديبنا وشعراؤنا بها منذ مطلع هذا القرن، فإذا فسرنا الاتجاه الواقعي بأنه يعني تصوير الواقع وتفسيره، فإن أدبنا العربي القديم لا يخلو من هذا الاتجاه، ف شعر ما قبل الإسلام يحتشد بأكثر بكثير من النماذج التي كانت سجلاً صادقاً للحياة العربية وقتئذ، ولكنه كما قلنا يستند إلى عفوية لا تنطبق انطباقاً شديداً مع الواقعية الغربية.

وهذا الحكم ينسحب على كثير من الشعر الأموي، المتمثل بصورة خاصة في غزل عمر بن أبي ربيعة والغزل العذري.

وفي العصر العباسي يقترب كثير من الأدب العربي من واقعيته العفوية التي نجد لها أمثلة في بخلاء الجاحظ، وغزل أبي نواس وخمرياته، كما نجد لها أمثلة عند غير هذين الرجلين، وإذا كانت الواقعية في أدبنا العربي القديم، لا تمت بصلة إلى الواقعية الغربي، فإنه تمتاح في العصر الحديث، الكثير من خصائصها من هذه الواقعية، وذلك للأسباب الكثيرة التي وضعت الجسور بين أدبنا العربي والآداب الغربية.

وقد تجلت هذه الواقعية في قصص جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة ومحمد تيمور وغيرهم وخصوصاً منها التي عالجت موضوعات الحب والزواج والإقطاع وغيرها.

وقد تقدمت خطوات واسعة بعد ذلك، في مجموعة من القصص التي تجلت فيها خصائص الواقعية النقدية عند طه حسين في (الأيام) وتوفيق الحكيم في (عودة الروح)، و (يوميات نائب في الأرياف) وأمين الريحاني في (قلب لبنان).

وغير ذلك من الأعمال التي صدرت بدافع المعالجة الاجتماعية والأخلاقية أو بدافع السيرة الذاتية أو التصويري الطبيعي المتداخل مع خلجات الأديب ومشاعره.

كل ذلك يؤكد تطور الأدب الواقعي نحو الأعمق والأصدق، واكتسابه الفني الإنساني الذي يؤهله لأن يأخذ طريقه جنباً إلى جنب مع الأدب الأوربي.

وتعد قضية (الريف) من أهم الموضوعات التي شغلت الروائيين الواقعيين العرب، منذ مطلع هذا القرن، فقد عالجت العديد من الموضوعات، الغنية بالأحاسيس الصادقة، كموضوع الصراع الطبقي والعلاقة بين ملاك الأرض والفلاحين، وما يتصل بها من مسائل الإقطاع وما يسود ذلك تقاليد وعادات ومثل، وفي هذه الموضوعات يشكل الريف الأرضية الخصبة للقضايا التي عالجها الكتاب.

ومن هنا وجدنا الرواية الواقعية العربية الحديثة في مصر، تسلك دروب نظيرتها الغربية ففي الواقعية النقدية، يحل كتاب القصة في مصر، العديد من المشكلات الاجتماعية التي قدمت مادة ثرة للكتاب من أمثال محمود البديوي وشكري عياد ويوسف إدريس وسعد مكايي ومحمود تيمور ومحمود طاهر لاشين ويحيى حقي وعبد الرحمن فهمي ونجيب محفوظ ويوسف السباعي ومحمد عبد الحليم عبد الله.

وقد اعتمد أصحاب هذا التيار على شرائح دقيقة من الواقع، لكن بعضهم أصيب بما أطلق عليه بعض الكتاب بـ (انتفاخ الذات) أو (بروز الذات) وربما يصح تسمية هذا التيار بـ (الواقعية الانطباعية).

في حين التجأ آخرون بقصصهم اتجاهاً (واقعيًا اشتراكياً)، ورواد هذا الاتجاه هم ممن ينتمون إلى الطبقة المتوسطة الصغيرة، أو هم أبناء عمال وفلاحين، ومنهم من كانوا عمالاً فعلاً، وهؤلاء منحازون فكرياً وسياسياً وطبقياً للواقع المصري، وفي مقدمتهم عبد الرحمن الشرقاوي وسعد مكايي وأحمد رشدي صالح ونعمان عاشور وزكريا الحجاوي ولطفي الخولي ومحمود السعدني وصلاح حافظ والفرد فرج وعبد الله الطوخي وسعد الدين وهبة وغيرهم.

وهذا الجيل من الكتاب قد تأثر بالكتاب الروس وكان بعضهم منحازاً سياسياً إلى اليسار الماركسي.

إن ظاهرة تضخم الذات التي أصابت بعض كتابنا، قد جعلت الأديب عاجزاً عن الالتحام بواقعه ولذلك يبدو مشغولاً بحياته الخاصة، ومشاكله الذاتية في عمله الروائي، كما وجدناه يبرر الكثير من الأفعال في الرواية، وسالكاً موقف الواعظ أو

القاضي، وقد وصل هذا الموقف لدى بعض الكتاب درجة تشمل الرواية كلها، ونتج عن هذا عجز مخيلة الكاتب عن تصور عالم الآخرين، ولذلك بدت بعض أفكار هؤلاء مغايرة لواقعهم، مقطوعة الصلة بمشاكله الذاتية الخاصة.

ويعد نجيب محفوظ في قصصه الواقعية من أبرز كتاب الرواية المعاصرين الذين تتجلى في كتاباتهم الواقعية عمق الرؤية، وهو أفضل من وفر في كتاباته المتطلبات الفنية لهذا الاتجاه.

وفي سوريا اتخذ الرواية الواقعية ثلاث اتجاهات لها هي الواقعية التسجيلية والواقعية النقدية والواقعية الاشتراكية.

فالرواية التسجيلية تقوم على مبدأ الانتخاب والاختيار بما يتواءم مع وجهة نظر صاحبها وأفكاره، إلا أنها تقف عند ظواهر الأشياء ولا تغور إلى أعماقها البعيدة، كما أنها لا تعطي اهتماماً للجوانب النفسية العميقة التي تحدد سمات الشخصية الإنسانية.

ويقف في مقدمة هذا الاتجاه وداد سكاكيني في روايتها (الحب المحرم) وفاضل السباعي في روايته (مواطن أمام القضاء) وثم (أزهر الحزن) وحسيب كيالي في روايته (مكاتب غرام) وشكيب الجابري في روايته (وداعاً يا أفاميا).

أما اتجاه الواقعية النقدية فيقوم لدى كتابها على استلهاً الواقع في معالجة الموضوع وخصوصاً الواقع الاجتماعي الفاسد، كما يقوم على تصوير الحياة المتنافرة الممزقة، ولذلك استمت رؤية أصحابها بنظرة متشائمة.

وتناول كتاب هذا الاتجاه، الواقع الاجتماعي والواقع السياسي والواقع القومي، وكانت قضية فلسطين من أبرز القضايا السياسية التي عالجتها.

وأبرز الأعمال السياسية التي تصدرت هذا الاتجاه روايتا غسان كنفاني (رجال تحت الشمس) و (ما تبقى لكم) وتعالج الروايتان حياة الشعب الفلسطيني وما ينتابه من يأس قاتل وانكفاء على الذات كما تعرض لصورة المأساة الفلسطينية وما نجم عنها من مشكلات نفسية واجتماعية واقتصادية وتعالج رواية (سنة أيام) لحليم بركات، الواقع الاجتماعي والواقع السياسي والواقع القومي للقضية الفلسطينية أيضاً.

وهناك روايات عالجت هذا الواقع من خلال حركة الأجيال التي تجسد الصراع في العلاقات الاجتماعية المعقدة.

ويتصدر هذا الاتجاه رواية (العصاة) لصدقي إسماعيل، ورواية (باسمة بين الدموع) لعبد السلام العجيلي، ورواية (غرباء في أوطاننا) لوليد المدفعي. أما الاتجاه الثالث للرواية السورية، فهو اتجاه الواقعية الاشتراكية، التي تستند إلى منظور اشتراكي في وصف القوى التي تعمل في سبيل الاشتراكية.

ويتقدم هذا الاتجاه مجموعة من الكتاب منهم، أديب لويس في روايته (متى يعود المطر) وحنّا مينا في روايته (المصابيح الزرق) و(الشراع والعاصفة) وفارس زرزور في روايته (لن تسقط المدينة) و(حسن جبل) اللتين تشكلان ثنائية على غرار ثلاثية نجيب محفوظ التاريخية، تطوراً في كتابة الرواية التاريخية من خلال رؤية واقعية اشتراكية.

وتمتد جذور الاتجاه الواقعي في الأدب القصصي في العراق إلى أواخر العشرينات من هذا القرن وتفتقر باسم محمود أحمد السيد، رائد القصة العراقية، الذي كانت قصصه، بداية للقصة الفنية الواقعية في العراق، والذي تأثر فيما يقال ببعض القصص الروسي الواقعي الذي يصور حركة الصراع الاجتماعي، أمثال قصص دستوفسكي وتولستوي وتورجنيف، كما تأثر بالقصص الواقعي الفرنسي لأميل زولا وفرانسوا كويه، وكتاب المدرسة الحديثة في مصر وبخاصة محمود تيمور وكان محمود أحمد السيد غير واضح الاتجاه في قصصه الواقعي لأنه لم يدرك ما يعنيه هذا الاتجاه ولذلك جاءت واقعيته ساذجة وبسيطة، وتفتقر إلى المتطلبات الفنية المهمة للرواية الحديثة ويبدو أن هذا الاتجاه، كان أكثر وضوحاً في رؤيته الفكرية، واشد توفيراً لمتطلباته الفنية، عند (ذو النون أيوب) وخاصة (الواقعية السياسية) فيه وقد تم له ذلك في منتصف الثلاثينات من هذا القرن.

وقد تعرض قصص (ذو النون أيوب) لما سبق ان تعرضت له القصة في مصر، وهي مشكلة (تضخم الذات) التي تجعل الأديب عاجزاً عن الالتحام بواقعه فضلاً عن افتقاره في قصصه للعديد من النواحي الجمالية والفنية التي لا غنى عنها في كتابة القصة.

وقد تمثل الاتجاه الواقعي السياسي في القصة العراقية، لدى مجموعة من الكتاب، أمثال عبد الرزاق الشيخ علي وغائب طعمة فرمان ومهدي عيسى الصقر وغيرهم.

وقد تطورت هذه الواقعية السياسية لدى مجموعة أخرى من الكتاب، ضمنوها الكثير من الأصول الفنية التي لا غنى عنها في هذا الفن، لذلك اطلق عليها بالواقعية الفنية، وكان ابرز ممثليها فضلاً عن (ذو النون أيوب) أنور شاؤل وشالوم درويش وعبد الحق فاضل غير أن (ذو النون أيوب) يعد في نظر البعض أباً شرعياً للواقعية السياسية في القصة العراقية، حيث امتلأت قصصه وروايتها بالنقد الاجتماعي وبالمواقف السياسية الجريئة والرؤية الإنسانية التقدمية التي تظهر على الخصوص في روايته (الدكتور إبراهيم) و (اليد والأرض والماء) أما الواقعية الاجتماعية النقدية، فيتصدر كتابها غائب طعمة فرمان الذي يعد رائدها الأول في روايته (المبعدون) ويليه في هذه الريادة (هشام توفيق الركابي) الذي يسعى إلى تعميق وتطوير هذا الاتجاه في الرواية العراقية الواقعية.

كما يتمثل في روايات العديد من كتاب الجيل التالي لهؤلاء مثل عبد الرحمن مجيد الربيعي في روايته (الأنهار) و(القمر والأسوار) وموفق خضر في روايته (الاغتيال والغضب) وغير هؤلاء من الكتاب الذين وفروا في روايتهم وقصصهم الكثير من مستلزمات هذا الاتجاه، وهي مستلزمات لا غنى عنها في كتابة الرواية الفنية الحديثة.

غير أن هذا الاتجاه في القصص الواقعي العراقي، لم يحرز التقدم الفني المطلوب قبل الحرب العالمية الثانية، فمنذ آنئذ أكدت القصة على إبراز الشخصية العراقية وتصوير البيئة، وتجسيد تطلعات الشعب، وتصوير آثار الاستعمار، وفساد الحكم، واستغلال النفوذ وسوء توزيع الثروات.

وقد تميزت هذه القصص بظهور الطابع المحلي فيها، وحضور الطبقة الوسطى والفقيرة.

كما أنمازت بالتطلع نحو مستقبل مشرق للشعب العراقي، وتنبأت بانتصاره على التخلف والاستعمار.

وحملت هذه القصص قدراً كبيراً من الصدق في التصوير، إلا أنها أصيبت بظاهرة الاستطراد في سياق الحوادث، ولكن بعضها لم يخل من التركيز في تصوير هذه الحوادث، وتمكن بعضها من تقديم الحدث النموذجي في صور موحية، وتحقق في بعضها العنصر الدامي الذي أكسب حبكتها طبيعة عضوية فنية.

ورسّمت القصص الواقعية صور أبطالها من الناس العاديين، والذي ينتمي معظمهم إلى الطبقة الفقيرة البرجوازية.

والى جانب الشخصيات العادية النامية في الرواية العراقية الواقعية، نلحظ شخصيات بسيطة غير معقدة.

وعلى الرغم من تميز أساليب بعض كتاب القصة الواقعية العراقية، إلا أن أساليب بعضهم قد انحطت إلى مستوى الأسلوب الصحفي.

وقد اصطنع بعضهم اللهجات العامية التي تناسب شخصيات الرواية، واعتمد بعضهم الآخر أسلوب السرد الرتيب الذي يفتقر إلى مقومات الفن الأصيل.

وهذه العيوب تشير إلى أن الفن القصصي العراقي لم يصل في مستواه الفني آنئذ مستوى مقبولاً من النضج.

وقد حظي الريف العراقي، بعناية الرواية الواقعية في العراق، في اتجاهيها الانتقادي والاشتراكي وكانت روايات محمود احمد السيد، وفي مقدمتها (جلال خالد) في طليعة الأعمال التي تعرضت لأحوال الريف العراقي أنها كانت ذات اتجاه نقدي ساذج، يفتقر إلى العديد من متطلبات الفن الواقعي ولكنها كانت تمهد لجيل جديد استطاع أن يوفر هذه المضامين إلى حد مقبول كرويات (اليد والأرض والماء) لـ (ذو النون أيوب) و(قالت الأيام) لـ (غالب عبد الرزاق) و (شمخي) لـ (شمران الياسري) و (الظائمون) لعبد الرزاق المطلبي، و (الراحلون) لقاسم خضير عباس و (النهر والرماد) لمحمد شاكر السبع، وقد تعرضت هذه الروايات للكثير من جوانب الحياة في الريف العراقي، من مثل الأحوال المعيشية والصحية والثقافية، وتطور العلاقات الاقتصادية، كما تعرضت لظاهرة الهجرة من الريف إلى المدينة، وبحثت الموضوعات العرفية المتوارثة، كعادة الثأر، وتناولت الاعتقاد الراسخ بالدجل والشعوذة والإيمان المطلق بالخرافات،

وصورت علاقات الرجل بالمرأة وعكست بعض الجوانب المشرقة للمرأة، وحياة الفلاحين الاجتماعية وتقاليدهم الريفية في الزواج.

أما الروايات ذا الاتجاه الاشتراكي فقد بحثت طبيعة الصراع الاجتماعي بين القوى المتناقضة في الريف مثل الدعوة إلى أصلح حياة أهل الريف، وتطور العمل الجماعي التعاوني بين الفلاحين، وظهور الدعوة للهجرة المعاكسة.

وعكست تحول المفاهيم الذاتية للتقاليد المتوارثة، إلى دلالات إنسانية معاصرة وتطور العلاقات الإنسانية للمرأة في الريف، وإبراز الدور الفاعل للمرأة في الإنتاج الريفي بوصفه مظهراً حضارياً.

وقد توفر في هذه الروايات العديد من المضامين الفنية التي تعكس قدرة الكاتب العراقي في توفير الأشكال الفنية للرواية الواقعية من مثل الحدث وبناء الشخصيات والسرد والحوار وغيرها.

غير ان هذه لاتجاهات الواقعية التي سلكها كتابنا تعرضت عند الكثيرين منهم إلى الهنات التي اعاقت تطورها، أو انحرفت بها جوهر دلالتها الموضوعية والفنية ومن هذه الهنات، انها ظلت عند الكثيرين تحتفظ ببيئتها المحلية الضيقة لا تتجاوزها إلى الرؤية العربية الحضارية.

وانحصرت عند مجموعة من الكتاب، بواقعهم الشخصي الضيق لا تتجاوزه إلى العلاقة العضوية التي تجعل من الأفراد جزء من الجماعة الوطنية أو القومية وظلت لدى البعض الآخر، واقعية أنماط معزولة عن حركة الواقع، وبذلك انحصرت فيما أطلق عليه البعض بالواقعية النمطية التصويرية التي يتصور فيها الكاتب مجموعة من الصفات التي يركبها على الفرد ليجعله يتصرف بموجبها، حتى يغدو نمطاً لطبقته فالبورجوازي دائماً شره ظالم والبروليتاري مظلوم مكافح، وابن المدينة شهواني وابن الريف ثوري صلب وهكذا.

ومن الهنات الفنية التي وقع فيها الكثير من كتابنا الواقعيين، خلط المونولوج بالسرد ورسم صورة للبطل تجعله مهزوماً دائماً في صراعه مع الواقع، وهذا يجعل البطل دائماً هو مأزق الرواية الواقعية العربية.

أما في ميدان النقد الأدبي، فقد قامت الدعوة إلى النقد الواقعي على اثر استقرار الاتجاه الواقعي في الأدب العربي الحديث، الروائي منه على الخصوص، فنادى انصار هذه الدعوة بربط النقد بالسياسة وبالواقع الاجتماعي، وسمى محمد مندور هذا المنهج النقدي (الأيديولوجي) وهو منهج يطلب من الأديب والفنان ان يستجيبا لحاجات العصر وقيم المجتمع بطريقة تلقائية، ويمكن إبراز اهم سمات هذه الدعوة في النقد بالتأكيد على المضمون دون الشكل على الرغم من ان الواقعية، تربط ربطاً عضوياً بين الشكل والمضمون، وبإبراز القيمة الكفاحية للأدب، والتأكيد على الوجه الإنساني للأدب الاشتراكي.

والمقصود بالإنسانية، السمات المشتركة التي تجمع بين البشر المعذبين، ومن ذلك الدعوة إلى شعبية الأدب، بوصفه ممارسة ثورية تقف بجانب الطبقة المكافحة وتعمل على تغيير صورتها الراهنة بما هو أفضل.

ومن ذلك أيضاً، التشدد في الاحكام النقدية، ضد التيارات المعاكسة للاتجاه الواقعي الاشتراكي على الخصوص.

هذا وقد تميز أسلوب هؤلاء النقاد بلهجة خطابية تغلب عليها المواقف الانفعالية.

ومما انطبع عليه أصحاب هذا الاتجاه الاشتراكي، تصنيفهم للأدباء على حسب ميولهم السياسية، وعلى نظرتهم المادية بصورة مباشرة.

وكذلك حكمهم على الآثار الأدبية في ظل تفسيرهم الطبقي، ويبدو هذا في نقد محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس وحسين مروة.

أما في ميدان المسرح فقد اقتضت الواقعية على بعض المسرحيات التي أخذت تظهر بعد الخمسينات، ظهوراً محدوداً وما لبثت أن نشطا بعد حرب ١٩٦٧ في مصر وسوريا، خاصة في مسرح سعد الدين وهبة ونعمان عاشور وسعد الله ونوس.